النظم والنظريات السياسية الإسلامية

دكتور
عبد الرحمن خليفة
كلية الآداب . جامعة الإسكندرية

دكتور
فضل الله محمد إسماعيل
كلية الآداب . جامعة الإسكندرية

٢٠٠٣

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ ش قناة السويس - المكس - ت ٥٩٢٣١٤٦

تمهيد

يقول مونتجمرى وات MONTGOOMERY WATT (١) فى مقدمة كتابه عن « المفاهيم الاساسية للفكر السياسى الاسلامى » ، ان الاسلام سوف يصبح عام ٢٠٠٠ أحد القوى المتميزة والمسيرة لهذا العالم — بالاضافة الى المسيحية والماركسية والكونفوشيوسية والبوذية — ونحن وان كان لدينا الكثير من التحفظ على هذا القول ، الا أننا نستطيع ان نستشف منه حقائق بدأت تفرض نفسها على مجتمعات الحقب الاخيرة من القرن العشرين ، لعل من أولها مظاهر ذلك المد الاسلامى ، الذى بدأ العالم يدرك — بكل عقلانية وموضوعية — كيف انه يقدم الحلول العملية لمشكلات كثيرة تعتصره الان ، ودليلنا على ذلك هذا الصوت الغربى غير المسلم ، الذى يأتى من أقصى بلاد الفرنجة ، ليقول كلمة حق ، على الرغم من غرابة وقعها على اسماع معظم الاوربيين ، ولعل المشاهد لبرامج التليفزيونات الاوربية والامريكية ، والمستمع لاذاعاتها ، يستطيع ان يلمس بكل سهولة كيف بدأت البرامج التى تتحدث عن الاسلام تزحف الى هذه وتلك ، وان كانت على استحياء كبير . ثم ألم نشهد هذا الفيض من الدراسات والمؤلفات التى تنتصف للاسلام ونظمه فى مواجهة الموجة الهجومية العاتية (٢) .

---

(١) وكان يعمل استاذا للغة العربية بجامعة ادنبرة باسكتلنده ، وله الكثير من الدراسات الاسلامية ، سواء فى التاريخ أم السياسة أم حول العقيدة ، ومن بينها : محمد فى مكة ، ومحمد فى المدينة ، وفكر المعتزلة السياسى ، واعادة تقييم الشيعة العباسية .

(٢) لعل من امتعها كتاب « شمس الاسلام تسطع على الغرب » للكاتبة

ان عدالة القضية أصبح يؤمن بها أنصار داخل المعسكر نفسه مثل جارودى وتوينبى وبرناردشو وبوكاى ، وأصبح هناك ملايين كثيرة من المسلمين داخل بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، وكذلك وجدت هناك كتب ومجلات وثقافة اسلامية رفيعة تضىء فى أوربا ويصل نورها الى القارات الخمس ، وداخل الكتلة الشرقية سواء فى الاتحاد السوفيتى أم فى أوربا الشرقية بصورة عامة حيث يوجد المئات من الملايين من المسلمين والاسلام الكامن القابل المتحرك يوما ما ، وأصبح هناك ايضا حكام يسارعون بالاعلان مقدما بأنهم اسلاميون ، وألوف كثيرة من الباحثين العلميين والسياسيين والاعلاميين فى كل مكان يؤمنون بضرورة اطلاق سراح الاسلام من اسارة الذى ظل مقيدا به طوال عصور الجمود الفكرى (٣) .

واذا كان هذا هو الامر بالنسبة لمن لا يدينون بالأسلام ، فلعله من باب أولى ان يكون المسلمون عارفين مقدرين بجدوى ما بين أيديهم من أصول ومبادىء ، لو أخذوا بها روحا قبل أن تكون نصا ، لاستقام أمرهم ، ولدانت لهم الدنيا ، كما حدث ذات فترة طويلة سابقة ، ولعلهلذلك ظهر هناك مصطلح «حتمية الحل الاسلامى» بمعنى ان يعود الاسلام نظاما يطبقه الفرد على نفسه مثلما تطبقه

الالمانية هونكة وكذلك كتاب « الخالدون مائة ، أعظمهم محمد رسول الله ﷺ » ، الذى الفه المفكر البريطانى مايكل هارت ، وتوافر على ترجمته المفكر المصرى أنيس منصور ، فى أوائل الثمانينات من هذا القرن ، الا ان هناك بعضا اخرا من التحفظ عليه .

(٣) فهمى الشناوى ، نحو اسلام سياسى (القاهرة : المختار الاسلامى ١٩٨٥) ، ص : ٦ .

الدولة على نظمها ومؤسساتها (٤) ، وغنى عن البيان ان الله سبحانه وتعالى ما أنزل القرآن على رسوله ﷺ الا لكى يكون دستورا للحكم ومنهاجا للحياة •

ومن هذا المنطلق كانت محاولة الدراسة هذه ، عرضا للاسلام والمدى الذى وصل اليه من السياسية ، والعلاقة بين الدين والدولة لديه ، ثم الخصائص التى يتميز بها النظام الاسلامى دون غيره ، والخصائص التى يشترك فيها مع الاخرين ، ولو فى المضمون دون المسمى ، وكم أرجو الله سبحانه وتعالى ان يوفق أحدنا الى نقل هذه المحاولة ومثيلاتها الى اللغات الاجنبية ، حيث المجال الحقيقى لبسط هذه المبادىء وعرضها أمام العقول هو هناك ، حتى يمكن أن يطلع أصحاب الفكر الاخر على النفائس الاسلامية فى كافة المجالات مما قد يدفعهم الى بعض المقارنات • ونحن على يقين ان النتيجة لابد وان تكون فى صالحنا ، أقول ان البيئة هناك فى حاجة الى بسط مثل هذا النوع من الفكر اكثر من المجتمعات العربية الاسلامية، التى ترتفع فيها الاصوات بين الحين والحين من أصحاب الدعوات الاصلاحية التى تحاول اثارة الحمية فى نفوس المسلمين للعودة مرة أخرى الى حظيرة الاسلام حيث الشورى والعدالة والمساواة والتكافل الاجتماعى •

وكم كانت السماء رفيقة بالانسان حين حددت له مبادىء عامة (لاسيما فى السياسية منها) دون تفاصيل دقيقة ، فأصول الحكم وقواعده محددة فى الدستور الاسلامى ، لا يحق لاحد

---

(٤) يمكن الرجوع فى هذا الصدد الى :
- د• يوسف القرضاوى الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف
- محمد الغزالى ، مشكلات فى طريق الاسلام •

أن ينال منها بالتعديل او التبديل ، ولكن اذا كان المبدأ قد قرر ، فان الشكل وطريقة وضعه موضع التنفيذ، التزم الاسلام بصددها المرونة الكاملة ، بشكل يسمح بصلاحيته للتطبيق فى كل زمان ومكان حيث لم يجمد القرآن والسنة شئون المسلمين عند نظام بعينه من نظم الحكم ، ولم يفرضا عليهم لونا معينا من الوان التنظيمات الدستورية ، ولم يتضمن القرآن والسنة شيئا عن نظم الحكم فى الدولة الاسلامية ، فهما لم يفضلا النظام الملكى على النظام الجمهورى ، كما لم يرفضا أحدهما من حيث المبدأ ، كما لم يتضمنا أحكاما تفصيلية فى شأن ما يجب ان تقوم عليه العلاقات بين السلطات العامة ، فلاهما يرجحان فصل السلطات ولاهما يرفضان تركيزها ، وفى مجال اختيار ولى الامر لم يحدد القرآن والسنة طريقة بذاتها يلتزم بها المسلمون ، بل ان الامر متروك فى ذلك لامة الاسلام فى ضوء احتياجات ظروف الزمان والمكان (٥) .

والجانب السياسى فى الاسلام ، وان كان يرتبط بالعقيدة والاخلاق ، الا انه لم ترد هناك اية واحدة فى القرآن الكريم عن الشكل التنظيمى الذى ينبغى على المسلمين الاخذ به فى هذا الشأن ، هذا فى الوقت الذى وردت فيه آيات كثيرة عن الوظيفة الاجتماعية للدولة ، وعن بعض المؤسسات التى يجب أن تقوم لتحقيق هذه الوظيفة الاجتماعية ، وهذا الموقف من القرآن الكريم هو الذى تقتضيه طبائع الاشياء ، فان المولى سبحانه وتعالى هو الذى يعلم بحكمته ما يجوز القول فيه بتفصيل ، وما يجوز القول

---

(٥) طعيمة الجرف ، نظريه الدوله والمبادىء العامة للانظمة السياسية ونظم الحكم (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٨) ، ص ٣٦٦

فيه بايجـاز ، وهو الذى يعلم ما يجب ان يترك للامة الاسلامية لتتناوله بالقدر الذى تسمح به أحوالها وظروفها (٦) .

وفى هذا المعنى تماما يكتب مفكر اسلامى آخر موضحا انه فى الوقت الذى نعرض فيه القرآن للتفصيلات او الجزئيات فى بعض فروع القانون التى ألحقت بالعبادات كما هو الشأن بصدد أحكام الاحوال الشخصية ، وبعض الاحكام الشرعيـة المتصلة بالقانون الجنائى كتحديد عقوبات بعض الجرائم ، (وهى التى يطلق عليها « الحدود » كحد السرقة وحد الزنا) ، فاننا نجده (أى القرآن) لم يتعرض للتفصيلات او الجزئيات فى الاحكام الشرعية المتصلة بالقوانين الاخرى (٧) ، حيث اقتصرت نصوصه ، بالنسبة للقانون الدستورى ـ على سبيل المثال ـ على تقرير المبادىء الاساسية الثلاثة ، التى تقوم عليها سياسة دستورية عادلة ، وهى الشورى والعدل والمساواة (٨) ، ولا غضاضة على الامة الاسلامية بعد ذلك فى أن تستفيد من تجارب الدول الاخرى طالما انها لا تتعارض مع تلك المبادىء وهذه الاصول .

والاسلام ، الذى يهدف الى صلاح أمر البشرية ، جاء بتشريع لا تحده عوامل الزمان والمكان ، فهو وان كان قد نزل فى فترة ترجع ـ طبقا للتأريخ الزمنى الوضعى ـ الى ما يسمونه بالعصور

---

(٦) محمد احمد خلف الله ، القران والدولة (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١) ص ٩٩ .

(٧) عبد الحميد متولى ، مبادىء نظام الحكم فى الاسلام (الاسكندرية منشاة المعارف ، ١٩٧٥) ص : ٣٤ .

(٨) عبد الوهاب خلاف ، مصادر التشريع الاسلامى مرنة (القاهرة ، مجلة القانون والاقتصاد ، ابريل ومايو ١٩٤٥) ص : ٢٥٤ .

الوسطى ، وفى مكان تحده الجزيرة العربية العربية فى أول أمره. الا انه تخطى عوامل الوقتية والمحلية ليصبح عالمى الصبغة أبدى الاثر والفاعلية ، والفكر اذا ما انحصر فى نطـاق بيىء ضـيق لا يتعداه ، وفى وقت معين لا يعيش فيما وراءه ، لن يصبح سوى مجرد نشرات دعائية ، وفى نفس الوقت اذا لم يكن للفكر صـلة ببيئته ، وانعزل عن ايديولوجياتها ، فسوف يصبح مجردا غير عضى، لا يستطيع أن يخطو الى ما وراء محليته ، والاسلام فى هذا أو ذاك جمع المحاسن فى فكرة وتطبيقه •

ولقد أبرز القرآن والسنة القيم الاساسية الجوهرية للنظام السياسى الاسلامى ، سـواء بالنسبة للامة ، أو ما اصطلح على تسميته بالمحكومين ، أو بالنسبـة لرئيس الدولة أو الامـام ، فأوضحت عقيدة الاسلام وشريعته حقـوق الانسـان فى الدولة الاسلامية وواجباتـه ، وبينت حرياته الاساسيـة المتعلقة بكيانه البدنى المادى وكيانه الفكرى المعنوى (٩) •

واذا كنا نرى العالم من حولنا يغير ويبدل من مثله ومثالياته، ويعيد بناء تنظيماته ، فحرى بنا نحن المسلمين ان نعرض وأن نبسط وأن نوجه الاضواء الى كل ما فى الاسلام من نظم ، لعل الله أن يشرح صدور أولياء أمورنا وساستنا وحكامنا ، الى أنه لا غلاح لهم فى هذا العالم — الذى تتصارع فيه الكتل مثلما تفعل الدول الفرادى — الا باللجوء اليه سبحانه وتعالى ، والى ما ارتضـاه لنا من مبادىء وقواعد فيها الخير كل الخير لنا ولما نستقبل من أجيال فيما بعد •

---

(٩) محمد فتحى عثمان ، من اصول الفكر السياسى الاسلامى (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩) ص : ١١ •

وسوف يلمس القارىء أننا التجأنا فى بعض الاحيان الى بعض التأصيل العلمى ، الذى يعاوننا كثيرا اذا ما التمسنا شيئا من المقارنة ، تأكيدا لاستقامة المفهوم الاسلامى فى مثل هذه الحالات ، وعلى سبيل المثال كان علينا ان يكون هناك بعض الحديث عن التعريف العلمى لكلمة سياسة ، لبيان عما اذا كان يمكن أن ينسحب على السياسة فى الاسلام ام لا ، وفى حقيقة الامر ان صلاح أمر العباد وفلاح امر المجتمع الذى تهدف اليه السياسة ، انما هو من جوهر الدين ، وعليه فانهما يتفقان فى الاهداف البعيدة وان كانا يختلفان فى الوسائل التى يتبعها كل منهما فى تحقيق تلك الاهداف ، وفى ذلك المعنى يقول المفكر الاسلامى محمد عمارة ، بعد ان يمهد ببعض التعريفات ، أنه بين الرسالة والسياسة علاقات وفروق ، وبين الدين والدولة عموم وخصوص ، فكل الرسالة سياسة ، وليست كل السياسة دينا ورسالة ، وان كان الدين قد حدد لها الاطار والمقاصد ، التى يكون بالتزامها سياسة شرعية ، حتى وان كانت من الابداع البشرى ، لا من وحى الشارع الى رسوله عليه الصلاة والسلام (١٠) .

ويلخص الدكتور صبحى الصالح ذلك كله فى قوله أنه نزل على قلب الرسول الكريم من آى القرآن ما كان توطئة طبيعية لاقامة الدولة الاسلامية الراشدة ، وانه عليه السلام — بعد هجرته الى المدينة — بدأ بنفسه يبذر لتلك الدولة بذورها ، ويرسم لها منهاجها ويضع لها تخطيطها ونظامها ، مع تقدير مقتضيات المصالح ودواعى الحاجات ، ولم نجد بأسا فى خلع اسم « الشورى » على حكومة

---

(١٠) محمد عمارة ، الدين والدولة (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦) ص : ١٤ .

الاسلام ، لانها تسمية أصيلة ، أوضحت أصالتها تصرفات النبى عليه الصلاة والسلام منذ قامت فى المدينة حكومته ، واعمال خلفائه الراشدين المهديين ، فلئن آثر الاسلام ترك صورة الحكم بسيطة لا تعقيد فيها ، فانما أراد بذلك ان يتنافس المسلمون فى بنـاء مجتمعهم تبعا لما يصيبون من أسباب الحضارة والعمران (١١) .

وبعد فهذه محاولة لعرض بعض المفاهيم السياسية فى الاسلام الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى خاتما لرسالاته ، فيه الكمال والاكتمال ، وهو الملجأ والمـلاذ لكل ما يعتصر العالم من أزمات ومشكلات ، ومن ثم فهـو القدوة لمن أراد ان يقتـدى سياسيا ، فكيف بنا نترك الجوهر الذى بين ايدينا لتكون لنا صولات وجولات فى تجريب لما حولنا من مبادىء وضعية ونظم انسانية ، لم تستطع ضمان حياة الرخاء والطمأنينة التى توفرت للامة الاسلامية خلال خلافة عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين على سبيل المثال ، حين أرسل من ينادى فى أرجاء المدينة عما اذا كان هناك من يود الزواج من الشباب وليس لديه ما يعينه على ذلك ، فيؤهله بيت مـال المسلمين وعمـا اذا كان هنـاك من مـدين فيقضى بيت المـال عنه دينه ، وعمـا اذا كان هنـاك مـن لا دار له فتولى بيت المال بناءها له ، ويعود المنادى حين لا يجد هناك من يحتاج الى هذا او ذاك ، أفلا يكفينا هذا دليلا ناصعا على قدر الكفاية التى وصلت اليها دولة الاسلام فى فجرها المبكر حين كان الاسلام سلوكا عمليا قبل ان يكون مظهرا خارجيا ، ولعله من هذا المنطلق صدقت كلمة برناردشو فيلسوف بريطانيا الشهير من ان مشكلات العالم المعاصر لا تحتاج من محمد ﷺ الا الى بضع دقائق ليحلها جميعا وهو يحتسى قدحا من القهوة .

---

(١١) صبحى الصالح ، النظم الاسلامية ، نشأتها وتطورها (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠) ص : ١٢ - ١٣ .

ولعله لذلك كله كان هذا البحث •

مع الامل والرجاء أن يكون الله سبحانه وتعالى الى جوارنا فى كل ما يعن لنا من أمور ، وما يعترض طريقنا من صعوبات ، وما يعتصرنا من مشكلات وأزمات ، ولنعلم قبل ذلك أو بعد ذلك كله، أنه لو عمرت القلوب بالايمان ، واستقام أمر الضمير والوجدان ولو علم الحاكم انه لا مفر من وقوفه يوما أمام العادل الذى لا يظلم كى يحاسبه على ما اقترف فى حق نفسه وحق شعبه من مظالم وتعديات ، ولو وضع كل امرىء منا نصب عينيه أن الله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، لو حدث ذلك كله لانهارت جميع تلك الصعوبات والمشكلات أمام شطحات ذلك الايمان الذى يضرب حينئذ بنور الله والله غالب على أمره •

وبعد ، فهو طريق واحد يؤدى الى الله سبحانه وتعالى •

فهلا اتبعناه ،،،